تأثير أفضليات التفكير الإنسانى على توجيه الهوية العمرانية للمدينة

دكتور/ محسن صلاح الدين صلاح الدين يوسف*

ملخص

يطرح البحث فكرة ربط أفضليات التفكير الإنسانى بالشخصية العمرانية للمدينة وأجزاءها، بهدف تحديد الإتجاه الذى تميل إليه الهوية العمرانية والمعمارية لأى فكرة عمرانية قديمة أو مستحدثة، ويتكون البحث من ثلاثة أجزاء هى:

١- خلفية تاريخية لتطور الشخصية العمرانية للمدينة،

٢- نظريات وآليات عمل العقل الإنسانى والتفكيروالتفضيل،

٣- نحو بوصلة للشخصية العمرانية للمدينة.

مقدمة

تمثل مشكلة إبراز الهوية أو الشخصية العمرانية للمدينة المعاصرة وأجزاءها، واحدة من أهم التحديات التى تواجه التنمية العمرانية فى بدايات القرن ٢١، وقد بدأت تلك المشكلة تزداد تعقيداً مع تنامى وسيادة بعض الظواهر الحديثة التى تؤثر سلباً فى طابع وخصوصية العمران، مثل التوحيد القياسى والإمتزاج الثقافى والعولمة، علاوة على تعدد وتعارض المذاهب والتيارات الفكرية الحاكمة لتطور العمران. ولاشك أن قضية الهوية العمرانية تمثل واحدة من القضايا عالية التعقيد والحساسية، والبحث العلمى حولها يواجه العديد من التحديات القياسية والمعيارية، نتيجة لإرتباط الهوية بأبعاد نوعية وقيمية وسلوكية وذهنية، تلك الأبعاد التى كان من الصعب فى الماضى قياسها ثم تنميتها وذلك لإرتباطها بطرق التفكير وأساليب التقييم والتفضيل عند المجتمع والقائمون على عمليات التنمية العمرانية، لذلك يهدف البحث فى ظل الفهم الحديث لأساليب وإتجاهات التفكير والتفضيل إلى إبتكار نموذج لتحديد وقياس توجه الهوية العمرانية نحو إتجاه محدد من خلال قياس إسلوب وتوجه التفكير والتفضيل وتأثرهما بطريقة عمل العقل الإنسانى، فيما يطلق عليه البحث إسم "بوصلة الشخصية العمرانية".

مشكلة البحث

البحث يناقش مشكلة إرتباط الشخصية العمرانية بأساليب التفكير والتفضيل عند المجتمع والمخطط والمصمم العمرانى والمعمارى، ويرى أن إعادة إستقراء وتفسير تلك الأساليب يتيح الفرصة لفهم توجه الفكر العمرانى والشخصية العمرانية نحو إتجاهات معينة دون غيرها، وبالتالى يمكن قياس وتوجيه الشخصية العمرانية نحو الإتجاهات الأفضل فى المستقبل.

تحديد وتعريف المصطلحات

١- الشخصية العمرانية

يعرف البحث الشخصية العمرانية للمدينة بأنها ماينتج عن التفاعل الذهنى الوجدانى للمجتمع وينعكس بدوره على

*كلية الهندسة – جامعة الأزهر

الصياغة التشكيلية للمدينة، فهى صورة تشكيلية لطريقة الإدراك الذهنى للمجتمع وأساليب تفكيره وتفاعله مع بيئته ورؤيته حول مدينته، كما تعرف هوية المكان بأنها منظومة اللاندسكيب الثقافى والتشكيل العمرانى الذى يعكس التوجهات الفكرية لمجتمع ما[١].

٢- أفضليات التفكير الإنسانى

يمثل التفضيل أرقى وأعلى مراتب التفاعل والتفكير الإنسانى حول البيئة المبنية، وفيها يحدث الإختيار وتشكيل الرؤية الذاتية، ورفض كل ماهو مخالف لتلك الرؤية[٢].

فرضية البحث

الفرضية الرئيسية التى يسعى البحث لتأكيدها وإبرازها هى:

"أن كل مظاهر وخصائص الشخصية العمرانية للمدينة وأجزاءها عبر العصور وكذلك كل عمليات التنمية العمرانية المستقبلية، هى نتاج لإسلوب التفكير والتفضيل وطريقة عمل العقل الإنسانى الجماعى من خلال الميل والتحيز الفكرى نحو جزء محدد من أجزاء المخ البشرى، وأن الفهم الحديث لظواهر وأساليب عمل العقل الإنسانى وتفضيلاته منذ آواخر القرن العشرين، يمهد الطريق نحو تطوير مناهج وطرق التفكير فى مختلف شئون العمارة والعمران فى القرن الحادى والعشرين".

منهج البحث

للتحقق من فرضية البحث وتأكيدها، يرصد البحث من خلال المنهج التاريخى ظاهرة تأثير أساليب التفكير الإنسانى عبر العصورعلى توجيه شخصية العمران للمدينة نحو إتجاهات تبادلية ثنائية، ثم يفسر من خلال المنهج الإستقرائى إسلوب الفهم والتفكير والتفضيل وتكوين العقيدة الفكرية الراسخة، مما ينعكس بدوره على صياغة الشخصية العمرانية للمدينة.

١- خلفية تاريخية حول تطور الشخصية العمرانية للمدينة

تمهيد

يعتبر قياس توجه الشخصية العمرانية للمدينة نحو جهة ما، قياساً لإسلوب الفهم والتفكير وطريقة التعامل الذهنى بين المجتمع ومدينته مما يؤدى للميل نحو جهة ما من التفكير وينعكس بدوره على التشكيل العمرانى.

ولاشك أن إستقراء وتتبع تطور الشخصية العمرانية للمدينة الغربية يعطى مؤشرات جيدة لإسلوب التفكير والتعامل العقلى للمجتمع مع المدينة وبالتالى يمكن رصد الإتجاه الفكرى الذى مالت له الشخصية العمرانية للمدينة أو أى جزء منها فى أى فترة من الفترات التاريخية السابقة، بل ويمكن كذلك توجيه الشخصية العمرانية فى المستقبل وفقاً لطريقة تفكيرالمخطط والمصمم العمرانى والمعمارى والمجتمع بوجه عام.

فالشخصية العمرانية للمدينة الغربية كما يرى لويس ممفورد[٣] ترجع جذور نشأتها إلى الفترة بين (٤٣٠:٤٨٠ ق.م) وذلك عندما بدأت المدينة الإغريقية تأخذ شكلاً إجتماعياً خاصاً، تمثل فى الديموقراطية والحرية الزائدة والتى أعطت للمواطن درجة عالية من حرية التعبير والتشخيص وخاصة مع نهاية الحروب اليونانية الفارسية وإنتشار الفلسفة السفسطائية. فكان كل مواطن ينظر للمدينة بإعتبارها ملكاً خاصاً له، وكان ينظر للفن بإعتباره تشخيصاً مادياً للروح اليونانية.

وقد تطورت الشخصية العمرانية للمدينة الإغريقية منذ القرن(السابع ق.م) فى إتجاهين أحدهما عضوى تلقائى غير منتظم، والآخر شديد النظام والترتيب؛ فكانت روح الأكروبوليس هى المسيطرة على شخصية المدينة فى الإتجاه االأول، حيث تركزت التشددية والفوقية والعقلانية فى المرحلة الأولى فى الأكروبوليس وسادت الحرية والجماعية باقى أجزاء المدينة التى أخذت شكلاً عضوياً عفوياً، وفى الإتجاه الثانى تركزت التحررية والفردية والأنانية والوجدانية فى فراغ الأجورا بينما أخذت المدينة

[1] Rapoport, A. (1977): Human Aspects of Urban Form, Towards a Man-Environment Approach to Urban Form and Design, Pergamon press, USA.
[2] Ibid
[3] Mumford, L. (1961): The City in History, Its Origins, Its Transformations, and Its Prospects, Harvest Books, 1987ed.

شكلاً هندسياً شطرنجياً عالى التنظيم والضبط والتشدد والتسلط.

وفى مرحلة المدينة الرومانية تركز التنظيم والضبط فى الشكل العام للمدينة وفى أحياء ومبانى السادة حيث الفخامة والتذكارية، بينما ظهر النسيج العضوى العفوى فى أحياء العبيد والتى تحررت من النظام الصارم ومالت نحو الجوانب الوجدانية الإنسانية والعضوية.

وقد إستمرت شخصية المدينة مائلة نحو التنظيم الهندسى الصارم حتى بدايات القرن الرابع الميلادى، حينما بدأ الميل نحو السيطرة الوجدانية على المجتمع الغربى من خلال العقيدة والسلطة الدينية وبدأت مرحلة من التسلط وفقدان الحرية المجتمعية تسود أغلب المدن الأوروبية الرومانية وإستمرت تلك الروح التسلطية مسيطرة على المدينة الغربية حتى نهاية مرحلة العصور الوسطى، وفيها تمثلت الجوانب العقلانية التنظيمية فى السلطة الدينية والتى تجسدت فى أشكال هندسية تذكارية للمبانى الدينية، بينما سيطرت الجوانب المجتمعية الوجدانية على كافة أجزاء المدينة فظهرت فى صورة عضوية عفوية فى أغلب أجزاءها.

وفى عصر النهضة ظهرت الشخصية الباروكية والتى مالت للتنظيم الهندسي فى الخطوط المستقيمة والشوارع العريضة والمبانى ذات الطراز الهندسى الباروكى، وكان الشكل الخارجى ستاراً لكافة الممارسات الوجدانية للحياة اليومية فى العصر الباروكى تعبيراً عن الإهتمام بالشكل دون المضمون، وخاصة مع بدايات ظهور الرأسمالية والميل نحو الربحية المادية فى بدايات العصر الصناعى.ومازال تأثير الروح الباروكية على شخصية المدينة الغربية مستمراً فى الكثير من المشروعات العمرانية، حتى أن العديد من أفضل العناصر التشكيلية الباروكية – بل وأسوأها – ظلت أهدافاً رئيسية يسعى إليها المخططون والمعماريون حتى الوقت الراهن.

وقد تأثرت شخصية المدينة الغربية منذ أوائل القرن العشرين بإنتشار وشعبية السيارات الخاصة وتم توجيه التخطيط العمرانى للمدن وأجزاءها طوال القرن الماضى نحو مراعاة ضوابط وقوانين ومعايير تسهيل حركة السيارة – كأحجام وكثافات المرور وعروض الطرق ومستوياتها وغير ذلك – مما أثر على تشكيل المدينة وطابعها وحولها لأجزاء موديولية نمطية وذلك من خلال "التقسيم وإعادة التقسيم ثم تقسيم تقسيم المقسم لأصغر الأقسام كما وصفها بذلك لويس ممفورد"، حتى تلبى إحتياجات السيارة وتراعى قوانينها وتحترم ميكانيكيتها.

وقد أدى ذلك لقولبة كل مفردات العمران بدءاً من الفصل بين إستعمالات الأراضى، ومروراً بتحديد نطاقات ثابتة للعناصر والخدمات، وتوحيد أنماط النسيج العمرانى وقوانين وأشكال ومواصفات المبانى وغير ذلك، علاوة على الجهود التى بذلت لإيجاد حلول منطقية وعلمية وحسابية لكافة المشكلات الكمية دون النوعية بالمدن.

والراصد لتطور الشخصية العمرانية للمدينة الغربية يلاحظ أن النسيج العمرانى للمدينة والذى يعكس إلى حد بعيد إسلوب تفكير المجتمع وشخصيته وأفضلياته الفكرية، كان يميل فى كل طور من أطوار تغيره نحو أحد إتجاهين رئيسين هما الإتجاه العضوى التلقائى العفوى اللامنتظم (Irregular)، والإتجاه الهندسى عالى التنظيم (Regular) كما فى شكل (١)، فقد سيطر على المدينة طابع العضوية العفوية فى المرحلة الإغريقية المبكرة، ثم ظهر فى مرحلة العصور الوسطى، بينما إتجهت المدينة للطابع الهندسى التجريدى فى العصر الإغريقى المتأخر وأستمرت كذلك فى العصر الرومانى، ثم عادت بعد إنقضاء العصور الوسطى وخلال عصر الباروك للطابع الهندسى التجريدى الذى إمتد تأثيره حتى القرن العشرين، وفيه شهدت المدينة طوراً جديداً وفريداً نتيجة لسيطرة السيارة على فكر تخطيط المدينة، فجاء النسيج العام لمدينة القرن العشرين نسيجاً هندسياً عالى التنظيم لمراعاة قوانين الحركة الآلية للسيارة[٤].

[4]Mohsen Salah Youssef (1992): The Evolution of Urban Personality of the Contemporary Arab City, PhD thesis, Al Azhar University.

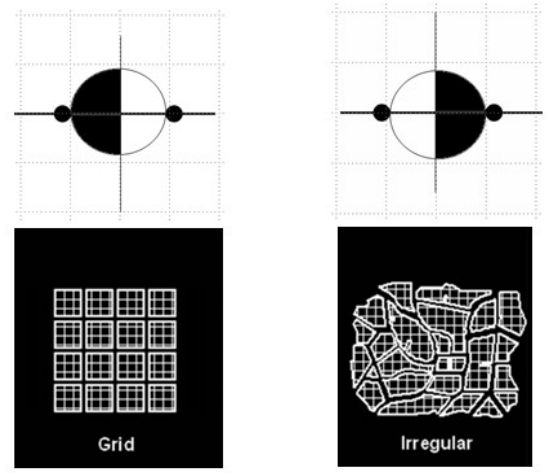

شكل رقم ١- ثنائية الشكل العضوى والمنتظم فى النسيج العمرانى للمدينة عبر العصور

٢- نظريات وآليات عمل العقل الإنسانى والتفكيروالتفضيل

تمهيد

يرصد هذا الجزء من خلال المنهج الإستقرائى، نظريات التفكير والتفضيل الحديثة التى فسرت آليات عمل العقل الإنسانى، منذ إكتشاف الوظائف الثنائية للمخ الإنسانى بواسطة روبرت سبيرى، ثم التقسيم الرباعى لتخصصات وأفضليات أجزاء المخ وتفكير العقل الكلى لكل من نيد هيرمان وكوبوس نيثلينج، وتصنيف كارل يونج للسلوك وإتجاهات الشخصية، وكذلك تفسير آموس رابوبورت لأليات التفضيل البيئى عند الأفراد والمجموعات.

تجارب روجر سبيرى حول وظائف نصفى المخ الإنسانى

وقد نشر سبيرى (Roger Sperry) مع إرنشتين (Robert Ornstein) عام١٩٧٦لأول مرة أدلة معملية قطعية تدل على تخصص كل نصف من المخ بوظائف معينة تختلف تماماً عن تلك الوظائف التى ينهض بها النصف الآخر، ومن أبرز نتائج تلك الدراسات المعملية هو إكتشاف قدرة النصف الأيسر على التفكيرالتحليلى(Analytic thought)، والقدرة العكسية للنصف الأيمن وهى التفكير الكلي والتأليفي (Holistic and synthetic thought)، فالأيسر ينهض بمسئوليات التفكير المنطقى والنقدى والمهارات اللغوية المكتوبة والمقروءة والمهارات الحسابية والرياضية، بينما تسيطر على الأيمن الملكات الفنية والتفكيرالإبداعى والحس الجمالى والإحساس بالتكوين الفراغى والألوان وماشابه ذلك[٥].

نموذج نيد هيرمان للتقسيم الرباعى للعقل الكلى

وقد تطورت بعد ذلك نظريات عمل العقل الإنسانى لتقسم المخ البشرى لأربعة أجزاء، لكل منهم تخصصه ووظيفته الرئيسية، وقد طور ند هيرمان تقنية (HBDI) "أو ما يعرف بأداة هيرمان للهيمنة العقلية" والتى تستخدم فى قياس الأفضليات الذهنية لدى الأفراد وفق التخصص الوظيفى لأحد الأجزاء الرباعية بالمخ، وبالتالى يمكن تطوير الأداء الذهنى وتحقيق أقصى إستغلال للقدرات العقلية، وهى تقوم على فكرة أن الفكر الإنسانى هو نتاج كل من خلق الله الطبيعى (Nature) والتطبع الإنسانى (Nurture) وأن جانب التطبع هو الذى يحدد طراز التفكير إلى حد بعيد، وهو ما ينشأ عن التركيز على تنمية جزء من المخ بحيث يبدو كأفضلية ذهنية ويميز الشخصية وطريقة التفكير وإتجاهاته، فكل شخصية هى نتاج الإستخدام المستمر لربع أو أكثر من المخ البشرى، ومقدار التفضيل (Preference) أو توظيف الطاقة العقلية للجزء أو للأجزاء من المخ هو الذى يحدد درجة تبلور الشخصية الإنسانية فى أحد الإتجاهات الفكرية كما يتضح فيما يلى – شكل (٢،٣)[٦]:

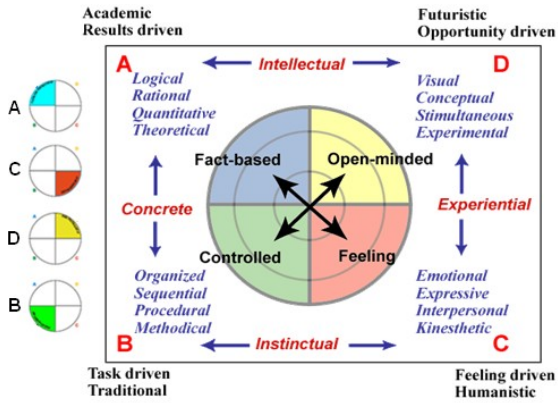

شكل رقم ٢- الخصائص العامة للأجزاء الأربعة للمخ الإنسانى

[5] http://www.nlm.nih.gov/ , also, http://tolearn.net/hypertext/brain

[6] Adapted from Ned Herrmann 1996: The whole brain business book, unlocking the power of whole brain thinking in organizations & individuals, also in www.asahi-net.or.jp/

١- ربع المخ الأمامى الأيسر(A) هو الجزء التحليلى، ويختص بالتفكير المنطقى، وتحليل الحقائق، والتعامل مع الأرقام.

٢- ربع المخ الخلفى الأيسر (B) هو الجزء التنظيمى، ويختص بالمداخل التخطيطية، وتنظيم الحقائق، ومراجعة التفاصيل.

٣- ربع المخ الأيمن الخلفى (C) هو الجزء التشخيصى، ويختص بالأمور الشخصية والنواحى الحدسية، والتعبيرية.

٤- ربع المخ الأيمن الأمامى (D) هو جزء الرؤية، ويختص بالنواحى التخيلية، ورؤية الصورة الكلية، وصياغة الأفكار.

٥- طراز النصف الأيسر (A&B) عملى وواقعى وعالى التنظيم.

٦- طراز النصف الأيم (C&D) متفتح، وحدسى، ومرن وتجريبى.

٧- طراز النصف الأمامى (A&D) يجمع بين التفكير التجريبى والتقنى.

٨- طراز النصف الخلفى (B&C) يجمع بين التقليدية والمسئولية.

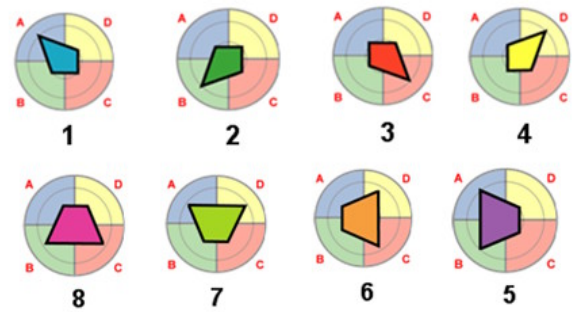

شكل رقم ٣- التوزيع الوظيفى للأجزاء المختلفة بالمخ الإنسانى

وترتكز تقنية (HBDI) كما سبق على تحديد الميل الذى تتجه له الأفضليات الذهنية لإستخدام جزء معين من المخ الإنسانى ومن ثم تطوير الأداء الذهنى لتوظيف طاقات العقل الكلى (Whole Brain Thinking)، وبحيث يتم الجمع بتوافق وإنسجام بين الخواص العقلية للأجزاء الرباعية للمخ الإنسانى (A,B,C,D)، كما يتضح فى شكل (٤)[٧].

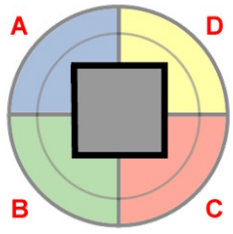

شكل رقم٤- نموذج تفكير العقل الكلى وفقاً لند هيرمان

نموذج الأداة العقلية NBI™ (لكوبوس نيثلينج):

تقوم أداة نيثلينج العقلية على دراسات بدأت منذ عام١٩٨٠ فى مجال "علم المخ الكلى" (Whole Brain Science)، وهى مبنية على فكرة التقسيم الرباعى للمخ الإنسانى وتهدف إلى تحديد أى الأجزاء الرباعية يميل كل فرد لإستخدامها كأفضلية عن غيرها، ومن بين المبادئ التى تؤكدها دراسات نيثلينج حول نموذج المخ (Brain Profile) مايلى[٨]:

* أنه ليس هناك نموذج عقلى جيد وآخر ردئ، وليس هناك نموذج صواب وآخر خطأ.

* أن الأفضليات الذهنية ليست مقياساً للذكاء، فالإنسان العادى قد يميل لأشياء أو يفضلها ولكنه ليس ماهراً فيها، والعكس صحيح.

* أن تمييز الفرد فى تفضيل أحد الأجزاء الرباعية للمخ لايعنى أنه مميز فى أداء كل الوظائف التى ينهض بعملها ذلك الجزء من المخ.

* أن نموذج المخ قابل للتغير مع الزمن، ويحدث ذلك عندما يكون هناك مؤثر قوى لإحداث ذلك التغيير.

* أن الفرد يمكنه تنمية القدرات العقلية حتى فى أقل الأجزاء أفضلية بالنسبة له، من خلال التدريب على إستخدام العقل الكلى الإبداعى.

* أن نموذج المخ يعطى مؤشر لكيفية إتصال الفرد بالآخرين، وكيفية الإدارة والقيادة وحل المشكلات وإتخاذ القرارات وغير ذلك من نواحى الحياة الأخرى.

[7]Ned Herrmann 1996: The whole brain business book, unlocking the power of whole brain thinking in organizations & individuals, in: www.asahi-net.or.jp/~ny3k-kbys/contents/whole...

[8]Whole Brain Thinking and the NBI, Page 10, Copyright © Jan 2005 the Thinking Network, also in www.thinkingnetwork.com.au

نظرية كارل يونج حول التحليل النفسى للتفكير والشخصية

حدد يونج أن هناك أربعة خصائص أو وظائف إنسانية أساسية تحدد الهوية أو الشخصية، وقد مثلها فى صورة محورين متعامدين شكل (٥)، فوضع الشعور (Sensation) والحدس (Intuition) على نهايات متضادة بالمحور الأفقى الذى يمثل الإحساس (Perceiving axis)، بينما مثل المحور الرأسي الأحكام أو التقييم، حيث يبدأ من الأعلى بخاصية التفكير(Thinking) وعلى الطرف الآخر الوجدان (Feeling)، ووفق نظرية يونج فإن تركيز الشخصية الإنسانية على أحد الأقطاب فى تلك المحاور يؤدى لضعف الوظيفة أو الخاصية المقابلة لها. وقد أكد يونج على أن الشخصية الإنسانية تسيطر عليها ثلاثة مستويات من السيطرة والتحكم فالوظيفة الرئيسية أو المسيطرة (Superior or dominant) هى التى تحدد هوية وشخصية الفرد فهى الأكثر تطوراً ونضوجاً، والوظيفة المقابلة هى الأكثر تواضعاً (Inferior) والتى تقع على الجهة المقابلة بنفس المحور، ويظهر المستوى الثالث على المحور المعاكس وهو الوظيفة أو الخاصية الفرعية (Sub-dominant) والتى ترتكز على أحد قطبى ذلك المحور. وقد ميز يونج كذلك بين التوجه الداخلى الإنغلاقى (Introversion) والتوجه الخارجى الإنفتاحى (Extroversion) فى الشخصية والتى تحدد مقدار التفاعل بين الفكر الفردى ونفسه وبينه وبين العالم المحيط، ولاشك فى أن تلك النظرية مثلت البداية العلمية للتحليل النفسى لأساليب الفهم والتفكير والتوجهات الشخصية والمعتقدات للأفراد والمجموعات، وهى التى مهدت الطريق كذلك لظهور النظريات الحديثة حول مجالات التفكير والإنتماءات الفكرية وأساليب التفكير النقدى والإبداعى وغيرها (٩).

كما أكدت بنزيجر(Katherine Benziger) أن الأفراد يؤدون وظيفة عقلية رئيسية واحدة فقط بجودة ملحوظة، نظراً للكفاءة

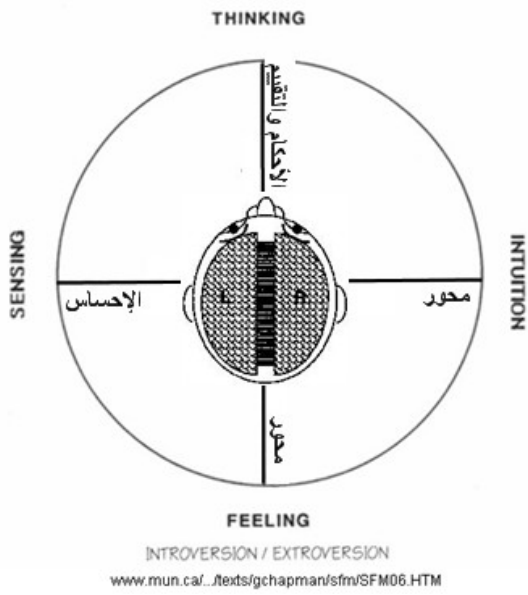

شكل رقم ٥

العالية للجزء الخاص بتلك الوظيفة فى المخ الإنسانى، ونظراً لأن المخ يعمل مثل العضلات فى الجسم، لذلك يتصف أحد نصفى المخ بأنه الأقوى والأكثر سيطرة من النصف الأخر، نتيجة للميل لإستخدام ذلك النصف بشكل دائم، وهو لايعنى عدم إستخدام النصف الآخر، وإنما يعنى ضعف الإعتماد عليه. وقد ثبت أن أداء كل جزء من المخ يتم بصورة ثنائية تبادلية إيقاعية مع أحد الأجزاء الأخرى بحيث يغذى كل منهما الآخر بالبيانات اللازمة لأداء وظائفه بصورة مستمرة، وهذه العملية تتم من خلال إرسال إشارات أو ومضات بمعدل ثلاثمائة ومضة فى الثانية وبحجم ملايين البيانات والمعلومات، محدثة تغيرات كهربية وكيميائية مستمرة، تتمثل فى طريقة التفكير وجمع وتخزين المعلومات والتحليل والتأليف وغير ذلك من عمليات ذهنية متواصلة(١٠).

آلية الفهم والتفكير والتفضيل والإعتقاد

أوضح راپوپورت(١١) فى دراساته حول ميول جماعات معينة لتفضيل بيئة عمرانية ذات خصائص محددة، أن

[9]Carl G. Jung (1964): Man and his symbols, Doubleday, New York, p.61, and www.mun.ca/.../texts/g Chapman/ SFM06.HTM

[10]Katherine Benziger (1995), the Art of Using your Whole Brain, Also in Katherine Benziger, Thriving in Mind (2000) , and http:// www. businessballs.com

[11]Amos Rappoport (1977): Human Aspects of Urban Form, Towards a Man- Environment Approach to Urban Form and Design, Pergamon Press, U.S.A. ,pp.(90:109)

عملية التفضيل الفكرى والميل للبيئة العمرانية تمر بثلاثة مراحل أساسية حتى تصل لمستوى الإيمان المطلق أو الأعتقاد الراسخ بإتجاه فكرى محدد لشكل البيئة العمرانية، حيث تبدأ بعملية الإحساس(Perception) وتمر بمرحلة الإدراك (Cognition) ثم مرحلة التفضيل (Preference) أو التقييم (Evaluation) كمايلى:

*** مرحلة الإحساس**

هى مرحلة إكتساب الفرد للخبرة الحسية بواسطة الحواس الإنسانية المباشرة، من خلال جمع المعلومات وتخزينها عن البيئة المحيطة، وهى أولى مراحل الإستيعاب والفهم البيئى (Environmental Apprehension) وأكثرها شيوعاً وبدائية، حيث لاترتبط بشخصية وثقافة الفرد أو المجتمع، ولاتتغير بإختلاف البيئة أو العصر.

*** مرحلة الإدراك**

هى مرحلة المعرفة ورسم الصور الذهنية، فهى عملية ترتيب وتنظيم دقيقة لكافة البيانات والمعلومات والحقائق التى يتم جمعها بالحواس ووضعها فى إطار صورة ذهنية منطقية (Mental Image) وفقاً لدرجة ومستوى وأدوات التفكير المنطقى لدى الفرد والمجتمع.

*** مرحلة التفضيل**

هى أعلى مراتب التفاعل مع الحقائق والبيئة المحيطة، وتبدأ فيها عملية الإختيار والفرز والتفضيل لنوعية البيئة والحقائق المتوافقة مع النواحى النفسية والوجدانية والثقافية، وتعتبر تلك المرحلة أعقد مراحل التفاعل بين الإنسان والبيئة والحقائق المحيطة، وأكثرها تعقيداً وخصوصية وذاتية، وأوثقها إرتباطاً بالشخصية العمرانية، ففيها تتبلور الرؤية الذاتية (Vision) والتى كلما إزدادت رسوخاً وثباتاً، كلما بدأت تتحول إلى الإيمان المطلق أو العقيدة (Ideology).

ولاشك أن تلك الآلية فى أساليب الفهم والتفكير والتفضيل والإعتقاد هى عملية دائرية (Cyclical Process) تبدأ بتكوين الإنطباع الأول(First Impression) ثم تمر بمرحلة مادية (Materialistic) وهى مرحلة الإحساس، ثم مرحلة عقلية (Mental or Rational) بالجانب الأيسر من المخ وهى مرحلة الإدراك، ثم تمر بمرحلة وجدانية أو روحية (Emotional or Spiritual) بالجانب الأيمن من المخ وهى مرحلة التقييم والتفضيل، وتنتهى بعملية الإعتراف التام بالبيئة أو الحقائق المحيطة (Recognition) وتبلور العقيدة الفكرية (Ideology) إما بالتحيز نحوها أو رفضها رفضاً مطلقاً، وعند تلك النقطة تبدأ دورة جديدة من عملية التفكير والتفضيل كما يتضح فى شكل (٦).

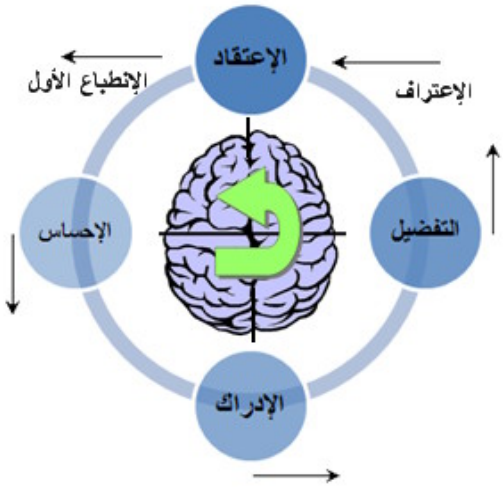

شكل رقم ٦- دورة الفهم والتفكير والتفضيل والإعتقاد

٣- المناقشة والنتائج

نحو بوصلة للشخصية العمرانية للمدينة

تمهيد

رصد البحث ظاهرة أن النسيج العمرانى للمدينة عكس إلى حد بعيد فى كل مرحلة من مراحل تطوره إسلوب تفكير المجتمع وأفضلياته الفكرية وشخصيته المحلية، إما فى الإتجاه العضوى التلقائى العفوى اللامنتظم من خلال التركيز العقل الجمعى (Collective Mind) على الجانب الأيمن من المخ، أو فى الإتجاه الهندسى عالى التنظيم بالجانب الأيسر من المخ. وهناك الكثير من الأدلة والشواهد التى تدل على صدق وأصالة الطرح الذى يتناوله البحث فى هذا المقام، ففى العمارة مثلاً ظهرت تيارات الكلاسيكية

والأكاديمية والبرنامجية والبنائيـة والإنشـائية والوظيفيـة وغيرها مما يركز على الأبعاد المنطقية العلميـة الحسـابية التى تميل لتغليب الجانب الأيسر من العقل فى التفكير، وفى الإتجاه المعاكس ظهرت الرومانسية والتعبيرية والرمزيـة والتلقائية والبيئية والتفكيكيـة والعضـوية وغيرهـا مـن الإتجاهات التى تركز على الجوانب الوجدانيـة الإبداعيـة الحسابية التى تميل لتغليب الجانب الأيمن من العقـل فـى التفكير، كما تأثرت شخصية العمران عبر العصور بالتردد بين ثنائيات عديدة منها الريفيـة والحضـرية، والتلقائيـة والمخططة، والأقليمية والمحلية، والمركزية واللامركزيـة، والرأسمالية والشيوعية، والسلطوية والتحرريـة، والكليـة والفردية وغيرها.

ولا شك ووفق ما يطرحه البحث فى أن الثنائيات مثلهـا مثل "وحدانية الخالق" هى مبدأ أو قانون كونى مطلق، (وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) "الذاريات ٤٩" وهى تتواجد فى كل شئون الحياة على الإطلاق، فالحيرة والتقلب الإيقاعى بين الثنائيات مثلها مثل "الشك والإيمان" هى حالة فكرية دائمة وصفة إنسـانية أساسـية ملازمـة للأفـراد والمجتمعات، ممايعكس بدوره على تطور روح وشخصية المدينة والعمارة والحضارة فى كل زمان ومكان.

وتقوم فكرة "بوصلة الشخصية العمرانية" التى يطرحها البحث كنتيجة رئيسية على مجموعة من الأسس والمبـادئ والتى تم إستقراءها ومناقشتها ويمكن تطويرها بالمزيد مـن البحوث لضبطها بالمعايير الكمية والرقمية، وبحيث يمكـن من خلالها النهـوض بطـابع وهويـة المنـتج العمرانـى والمعمارى من خلال تطوير المناهج والممارسات المهنيـة فى مجالات العمارة والتخطيط والتصـميم العمرانـى فـى المستقبل، ويمكن إيجاز تلك الأسس والمبادئ فيمايلى:

* أن البوصلة (Compass) كأداة لقياس الإتجاهات الجغرافية منذ القدم هى الأكثر ملاءمة وفعالية لرصد وتحديد الإتجـاه الفكرى الذى تميل إليه الشخصية العمرانية أو المعماريـة، حيث ترتكز الشخصـية الفكريـة للمخطـط والمعمـارى وأعمالهما وتتبلور عند نقطة محددة يمكن تحديدها بدقـة إذا ما تم تحليل وتوصيف الإتجاه الفكرى الذى يقوم عليه العمل المعمارى أو العمرانى، شكل (٧).

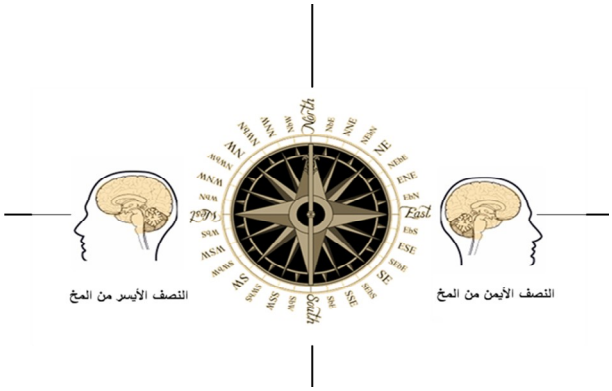

شكل رقم ٧– فكرة بوصلة الشخصية العمرانية

* أن الفهم الحديث لعلاقة ثنائيات عمل العقل الإنسانى وما تتوصل إليه الإنسانية من تطور فى الأفكار والتفضيل بين الثنائيات الفكرية، يمكن أن يقودنا لتحديد الإتجاه الذى تميل إليه الشخصية العمرانية للمدينة وأجزاءها فى أى مرحلة من مراحل تطورها، ومن ثم الإرتقاء بالشخصـية العمرانيـة للمدينة وأجزاءها فى المستقبل. فالتفكير النقـدى كـأعلى مراتب الفكر، يعتمد على قدرة الفرد على التمييز والإختيار بين الثنائيات الفكرية، من خلال الإستكشاف والتحليل وإتخاذ موقف ما أو الميل نحو إتجاه معين إذاء الثنائيـات الكامنـة وراء القوى المتضادة (Opposing Forces) فى القضايا الجدلية (Debates)، ويعتبر مبدأ الإختيار بين الثنائيات (Duality) هو الأساس فى تحديـد أفضـليات التفكيـر لـدي المخطـط والمعمارى وتصنيفهم إلى يمينى أويسارى، وأمامى أو خلفى المخ فى التفكير، كما يساعد أيضاً فى تحديد مواطن القـوة والضعف، والفرص والمخاطر فـى أى طـرح أو فكـرة عمرانية أو معمارية مستحدثة، وبالتالى يمكن صياغة مناهج ملائمة لحل المشكلات العمرانية والمعمارية، مـن خـلال التوظيف الأمثل لطاقات العقل الكلى.

* أن بناء الفكر النقدى فى قضية عمرانية ما يـتم بشـكل دائرى (Cyclic) وربما حلزونى (Spiral) كما فى شكل (٨)،

حيث يبدأ من الربع الأمامى الأيسر للمخ وفيها يتم تحديد وترتيب المعلومات والحقائق، ثم يمر الفكر لمرحلة تنظيم المعلومات والحقائق بطريقة منهجية يتم من خلالها طرح بدائل تخطيطية لحل المشكلة بالربع الأيسر الخلفى من المخ، ثم تأتى مرحلة التقييم والتفاعل الوجدانى مع الخطط وبدائل الحلول بالربع الأيمن الخلفى للمخ، ويلى ذلك مرحلة التجريب والإلهام والإستبصار والإبداع وطرح الأفكار غير التقليدية بالربع الأيمن الأمامى للمخ، بينما فى الفكر الإبداعى فالعملية تتم بصورة عكسية، حيث تبدأ من الربع الأمامى الأيمن وتنتهى بالربع الأمامى الأيسر من المخ.

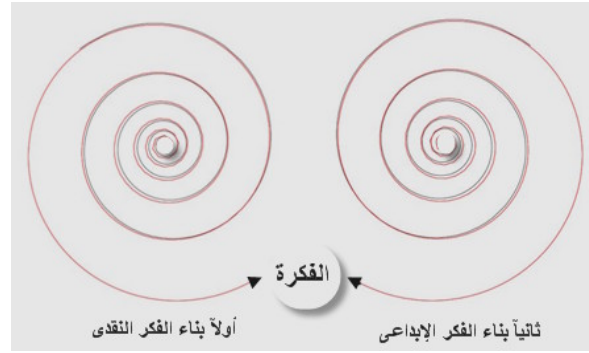

شكل رقم ٨- آلية بناء الفكر النقدى والإبداعى

* أنه ليس كل الحلول العمرانية والمعمارية للقضايا المختلفة تمر بنفس المراحل السابقة، وإنما قد يحدث التفاعل فى الوصول لأفضليات التفكير داخل إطار أحد الأجزاء الرباعية للمخ (٩-١)، أو يحدث التفاعل بين ربعى المخ الأيمن الإبداعى، أو بين ربعى المخ الأيسر النقدي (٩-٢)، أو يحدث التفاعل التبادلى والتفضيل بين ربعى المخ الأماميين أو بين ربعى المخ الخلفيين (٩-٣) أو ينحصر التفضيل ويبقى فى حالة تردد وحيرة وتقلب بين ثنائيات كل ربعين متقابلين (٩-٤).

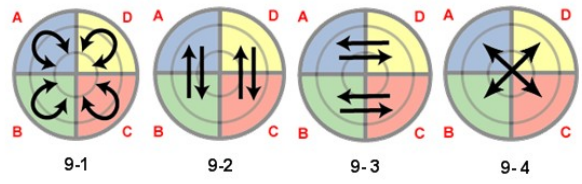

شكل رقم ٩- التفاعل التبادلى وإسلوب التفضيل بين الأجزاء الرباعية للمخ الإنسانى

* أمكن من خلال تطوير نموذج "تد هيرمان لأداة العقل الكلى" (HBDI) السابق ذكره وضع تصور ثلاثى الأبعاد لشكل "بوصلة الشخصية العمرانية"، والتى تحاكى التقسيم الرباعى للمخ الإنسانى، وتتضمن كافة المواضع المحتملة لأى أفضلية فكرية أو فكرة عمرانية أو معمارية، ويتحدد موضع الأفضلية الفكرية داخل البوصلة بناء على مقدار تبلور الخصائص التى تقوم عليها تلك الأفضلية ومدى إرتباطها بخصائص ووظائف ذلك الجزء من المخ الإنسانى. كما يتحدد مقدار تبلور الفكرة كذلك فى النموذج المقترح وفقآ لدرجة قربها فى البوصلة من نقطة المركز، أونقطة تقاطع كل من المحور الرأسى والأفقى. فالفكرة العمرانية، والتى يمكن التعبير عنها بالهندسة الفراغية (Three-dimensional Cartesian Coordinates x,y,z) فى مرحلة بناءها وتبلورها تدور فى المخ على هيئة مجالات أو مدارات ثلاثية الأبعاد أقرب ماتكون لشكل المدارات الفلكية (Orbits)، وتزداد قوتها كلما إقتربت من نقطة المركز، بينما تضعف وتفقد تبلورها إذا ما بعدت عن نقطة المركز كما فى شكل (١٠).

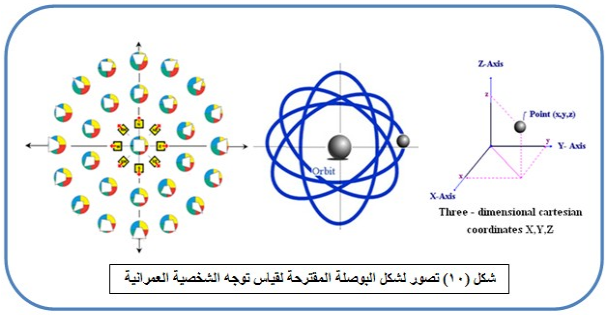

شكل رقم ١٠- تصور لشكل البوصلة المقترحة لقياس توجه الشخصية العمرانية

التوصيات

بناء على ماسبق، وحتى يحقق المدخل المقترح الفائدة المرجوة منه، فيمكن الأخذ بالتوصيات التالية:

- زيادة الإهتمام الأكاديمى فى مجال التخطيط العمرانى والعمارة بفروع علم النفس المعرفى والإدراكى (Cognitive Psychology) وطرق وأساليب التفكير

والمكتشفات الحديثة لطاقات العقل الإنسانى وقدراته علـــى توجيه الهوية الحضارية والعمرانية.

– تطوير برامج التعليم العمرانـــى والمعمـــارى، لتأهيـــل الطلاب نحو إستحدام طاقات العقل الكلى فى صياغة الرؤى والأفكار المعمارية والعمرانية ذات الهوية المميزة.

– التوسع فى إستغلال فكرة بوصلة الشخصية فـــى توجيـــه وتقييم الأعمال المعمارية والعمرانية، وتحديد مدى أصـــالة أى عمل أو منتج عمرانى.

References

1- Amos Rapoport, (1977): Human Aspects of Urban Form, Towards a Man-Environment Approach to Urban Form and Design, Pergamon press, USA.

2- Carl G. Jung (1964): Man and his Symbols, Doubleday, New York, Page 61, and www.mun.ca/.../texts/g Chapman/ SFM06.HTM

3- Katherine Benziger (1995), The Art of Using your Whole Brain, Also in Katherine Benziger, Thriving in Mind (2000) , and http://www.businessballs.com

4- Kobus Neethling (2005): Whole Brain Thinking and The NBI, Page 10, Copyright © Jan 2005 The Thinking Network, www.thinkingnetwork.com.au

5- Mohsen Salah Youssef (1992): The Evolution of Urban Personality of The Contemporary Arab City, Unpublished PhD thesis, Al-Azhar University

6- Mumford, L. (1961): The City in History, Its Origins, Its Transformations, and Its Prospects, Harvest Books, 1987ed.

7- Ned Herrmann (1996): Adapted from The Whole Brain Business Book, Unlocking The Power of Whole Brain Thinking in Organizations & Individuals, Also in www.asahi-net.or.jp/

8- http://www.nlm.nih.gov/ , also, http://tolearn.net/hypertext/brain